الفصل الثالث

علامة قابيـــل

نقرأ فى سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه هابيل وأصـــبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لمـــا آل اليه حظه العثر • وأشفق عليه الرب كل الاشفاق ، الى درجة أن « جعـــل الرب لقابيل علامة لكى لا يقتله كل من وجده »(١) •

فما العلاقة التى ميز بهـــا الرب أول قاتل علـــى وجه الأرض ؟ أو ما الاشارة التى حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة • وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العـــلامة أو الاشـــارة ، فان الموازنة بين العادات التى يتبعها القتلة فى بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العـــلامة التى نتســـاءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الاشـــارة الى أنه ينتمى الى جمـــاعة يمكن أن تثأر لقتـــله • ومن المؤكد أن مثـــل هذه العـــلامة مألوفة بين الشعوب التى احتفظت بالنظام القبلى • ومثال ذلك ، هنـــاك شـــعار رئيسى تعرفه القبائل البدوية التى تعيش فى العصر الحاضر يتمثل فى

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

طريقة معينة فى تصفيف شعورهم • وفى كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر فى عضو من أعضاء الانسان•ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هى حماية الفرد الذى ينتمى الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » • على أنه ينبغى لنا أن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان فى بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم • على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هى حماية حاملها ، فما زال هذا التفسير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة « قابيل » لا يتلاءم مع موقف « قابيل تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة • فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمى كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل فى مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملها كل فرد من أفراد جماعة « قابيل » ، وانما كانت خاصة بقابيل وحده • ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى •

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أى فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه • فلقد قال الرب : « ماذا فعلت • صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها • تائها وهاربا تكون فى الأرض »(١) ••

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القتيل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها• ومن ثم كان الاعتقاد فى أن القاتل قد بث السم فى منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقدعرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر •

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ .

ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذى يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام • انه أصبح أشبه بالمبتلى بالطاعون ، ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده • وفى هذه الحال يمكننا أن نفهم نظاما ما معينه فرضه قانون « أتيكا » ، فالقاتل الذى نفى من « أتيكا » . واتهم فى أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكى يدافع عن نفسه • ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر السفينة • وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلقى مرساها أو تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمذنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطىء أو واقفين عليه • ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل فى الحجر الصحى • حتى لا يصيب « أتيكا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مباشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها • ومن أجل هذا السبب نفسه ، فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، فى أثناء ابحاره على شاطىء البلد الذى ارتكب فيه جرمه ، فانه ، وان كان يسمح له حقا أن ينصب خيمته على الشاطىء حتى تفد سفينة وتقله معها ، الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطىء ويدلى قدميه فى الماء طوال الوقت ، حتى يبطل مفعول السم الذى يظن أنه غرسه بقدميه فى التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفف بذلك من تأثيره •

ونظام الحجر الصحى الذى فرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالى جزيرة « دوبو » البدائيين ، وهى جزيرة تقع فى أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضون العزل على القتلة حتى اليوم • وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام فى هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقوم ضد أقرباء الزوجة • فاذا قتل شخص فى هذه الحرب ، فانه لا يجوز

أكل لحمه • فاذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته • ولا يجوز لأحو أن يعد له الطعام سوى زوجته • فاذا خبت النار عندها وهى تطهو لزوجها الطعام ، لا يجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها • وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه • ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، اذا ما قتل الرجل أحد أقربائه •

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وهو وفقا لاصطلاحهم ابن خاله) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلى بالجير ، كما يكون له سكين فيها ، وأن يكون له سكين وزجاجة ماء وفنجان ، ومجموعة من أوعية الطبخ • كما عليه أن يحصل على شراب جوز الهند وعلى الفاكهة من مكان آخر غير قريته • وكان عليه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممكن ، فاذا ما انطفأت لا يمكنه أن يعيد ايقادها من نار أخرى ، بل عليه أن يحصل على شعلة النار عن طريق قدح الزند • فاذا خالف الزعيم هذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبث دم أخيه القتيل السم فى دمه ، فيتورم جسمه ويموت ميتة رهيبة •

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالى جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتيل يفعل السم فى جسم القاتل ، وذلك اذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه قرية القتيل ، أوحتى ان اتصل بها بطريق غير مباشر • فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليها لصالحه أكثر من حرصه عليهم لصالح الجماعة التى ينعزل عنها • ومن المحتمل أن النظام الذى يفرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو • ومن المحتمل عى أى حال أن الناس كانوا يعتقدون فى وجود الخطر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون أن كلا من القاتل ومن

يتصل به معرض لأن يصاب بتسمم دمه الذى يحدث عن طريق العدوى. ومن المؤكد أن «الاكيكويو» الذين يسكنون «أفريقيا الشرقية البريطانية» يعتقدون فى أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعدوى ميكروب كريه . فهم يظنون أن القاتل اذا نام فى قرية وتناول الطعام مع عائلة من العائلات فى كوخها ، فانه يصيب الشخص الذى تناول الطعام معه بدنس (ثاهو) الأمر الذى يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن الطبيب من ازالة الدنس فى حينه . فالجلد الذى ينام عليه القاتل يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليه بعد ذلك للاصابة بهذا الدنس ولهذا فان العائلة تستدعى الطبيب لكى يطهر الكوخ وسكانه .

وكذلك « يعد القاتل » عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا على نحو ما ، وهو يظل هكذا سائر سنى حياته . فالسم ينضج من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يده ، يصاب بداء وبيل ، كما أن لحم الحيوان الذى يقوم بذبحه لا يعد صالحا للأكل ، وبالمثل يشارك فى أكله . فاذا وفد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه تتسرب فى باطن الأرض فى الحال . وقد أخبرنى أهالى منطقة « الحياينة » فى بلاد المغرب ، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير فى حقول الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تطأ قدمه مكان درس الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف . والقاعدة المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ، الا يقوم القاتل بذبح ضحية عيد الأضحى بنفسه . وهناك تحريم مشابه بهذا تلتزم به بعض القبائل التى يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من يقتل كلبا ، اذ أن الكلب من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوى للجن .

على أن دم هابيل فى القصة التوراتية ليس هو الشىء الوحيد الذى شخصه القاص . فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقد صور الأرض فاغرة فاها لتستقبل دم الضحية . وفى ملحمة الاليادة

شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ؛ اذ صور الأرض تشرب من دم أغاممنون القتيل • ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ؛ ذلك أن « الأرض أحلت اللعنة بالقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها، لأنه قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض • والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن ارض ، وقد تلوثت بدم القتيل واستاءت لجريمة الدم ، أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثمارا ؛ بل انها طردت القتيل من الارض الخصبة التى شب عليها من قبل ، وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام • وليست فكرة أن الأرض كائن حى يصارع ضد ما يرتكبه سكانها من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهد القديم • فنحن نقرأ فى سفر الأحبار « أن الأرض تقذف سكانها » اذا هم دنسوها كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم »(١) •

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثل هذه الأفكار عن تلوث الأرض بدم القتل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شبح أمه « ايريفلى » التى قتلها ؛ فهام على وجهه فى الأرض فى غير راحة ؛ حتى لاذ فى النهاية بنبوءة معبد « دلفى » • وهناك أخبرته الكاهنة أن « المكان الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفيلى » ؛ هو أكثر الأماكن حداثة ؛ وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن سفك دم أمه » • أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توسيديد » : « أنه لن يتخلص من فزعه الا اذا عثر على البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالمياه حتى ذلك الحين ، فيسكنه ، لأن سائر بقاع الأرض قد تلوثت بجريمته » • فرحل « الخاميون » مقتفيا أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة حتى اكتشف عند منبع نهر

(١) انظر سفر الاحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ •

« أشيليوس » جزر « ايخيناديان » الصغيرة العارية التى قيــل : ان النهر قد صنعها من الطين الذى جرفه من شـواطئه بعد أن اقترب الآثم جريمتــه ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقــا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت فى وادى « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذى يقع بين جبال أركاديا المهيبة • ولكن حتى هذه الجــزر رفضت أن تقدم خيراتها للقاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجــواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد فى أن الأرض ذات الوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليهــا دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقــدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كانت تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبــائل « السنغال الأعلى » ، التى تكفر حتى عن الجراح التى انســكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففى اقليم « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذى يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها فى خشــبة يثبتها فى الأرض • أما أسرة القتيل ، فلا يقدم لها شىء • وبعــد هذا يأخذ أهالى القــرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حــدث شــجار بين بعض أفراد « لبوبو » ، وجرح بعضهم جراحا لم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذاك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمرآة ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة [1] • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سنا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن يقدم للأرض • وأما أهل القتيل فيهملون كلية فى هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شىء ، وهو تصرف منطقى لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتيل على حساب القاتل ، بل الغرض منه تهــدئة ســورة غضب

---

(١) صدفة صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة فى افريقيا وآسيا .
(المترجمة)

الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة التى استاءت لمنظر الدم المسفوك • ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاساءة ، لا يمنح شيئا فى هذه الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة حتى يهدأ غضبها • فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب السوداء ينظر اليها بوصفها الهة عظيمة •

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فما يختص بدم القتيل المسفوح • فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمته بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمرأى الدم المسفوك • ويقوم الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية للأرض الغضبى ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال القرة سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئا ، أو هى على أحسن تقدير تأخذ نصيبا مناسبا من اللحم والنقود • أما فى حالة المشاجرات التى لا يقتل فيها أحد ، بل يسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع دية تتكون من ثور وشاة وعنزة وأربع دجاجات لتقدم ضحية للاله المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم • ويقدم « سيد الأرض » الثور ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقدم الشاة ضحية للنهر ، والدجاج للصخور والغابة • وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية ضحية لحيوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه • واذا لم تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها •

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز بها القاتل لا يقصد بها أولا حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية

الآخرين الذين يصادفهم والا انتقلت اليهم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ، فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهم غضب شبح القتيل الذى يطارده • أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت اشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجذوم فى بنى اسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره •

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كما يعنى بها صالح القاتل وحده • وأكثر من هذا فانها تشير الى أن الخطر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل • وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينا أن نغوص فى أعماق خرافات « أتيكا » كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات « أثينا » • فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات • فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف فى الأماكن التى ألف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغى له أن يعود اليه الا بعد أن تكون الضحيات قد قدمت ، وأقيمت احتفالات شعائر التطهير • فاذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كما أن عليه أن يسير فى الطريق الذى يوصف له ، وهو فى طريقه الى منفاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجول فى البلد وشبح القتيل الغاضب فى أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التى تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن

خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التى تلعب دورا كبيرا فى الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقدون أنه يأتى الى هذا المكان فى تلك الليلة بعينها فى صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فاذا سد رمقه ، فانه يحجم عن أن يعود الى القرية ليضايق أهلها • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القاتل ؛ الا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهى لا تقيم هذه الشعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التى تسكن جبل « الجون » الذى يقع فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ؛ أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى فى مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصالح أقرباء القتل •وعليه بعد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على سطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشبح » • ويؤدى المحارب فى قبيلته « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا فى احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الغرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شبح القتيل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى فى بيته ؛ بل يقضيها فى بيت أحد أصدقائه • وفى مساء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصدره وذراعيه • فاذا كان له أولاد ، فانهم يلطخون أنفسهم على نحوذلك • حتى اذا ما حصن المحارب نفسه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه

بأمعاء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكى يأكلها الشبح ، فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، ان لم يكن قد استقر فوقه • ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتيل الطعام مدة يوم كامل ، بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصى أعد لهذا الغرض • وفى اليوم التالى تترك له الحرية فى أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته العادية • ولا تلزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل إنه يمكنها أن تشارك أسرة القتيل فى حدادها ، وأن تشترك فى مأتمه • فربما هدأ هذا الحزن المصطنع مشاعر شبح القتيل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه •

ويعـزل القاتل فى قبيلة « نيلوتيك كافيروند» ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن فى كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شـئونه ، وتطهـو له الطعـام ، وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعـام بيده • وتستمر هذه العزلة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يأتى اليه رجل يكون هو نفسـه متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا ، معركة حربية ، ويصطحبه الى نبع ويغسل له جسمه • ثم يذبح هذا الرجل نعجة ، ويطهـو لحمهـا ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصى ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضـع الرجل بعد ذلك أربع كرات معجونة من الثريد على العصى الأربع ، ويقدمها للقاتل لكى يأكلها كذلك • وفى النهاية يقطع جلد النعجة الى أشرطة ، ويلف شريطا منهـا حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها الرجلان منفردين عند النهر • وبعد ذلك يكون القاتل حرا فى أن يعـود الى بيته • وتقول القبيلة : ان شبح القتيل لا يذهب الى المكان الذى يرقد فيـه الميت ، بل يظـل يحلق فوق القـاتل ، حتى ينتهى من تأدية هذه الشعائر •

ولا يخاف القـاتل فى قبيلة « بولوكى » التى تعيش فى « أعالى الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتيل ينتمى الى البـلاد المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التى يستطيع أن يتجول فيها الشبح

« البولوكى » ، محدودة للغاية • على أن جريمة القتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطورة اذا ارتكبت مع رجل من بلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعلم عند ذاك ان الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه• وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه الفزع • ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما كان القتيل أخاه ، فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبكيه بدموع منسكبة كدموع التمساح ، ومن ثمفان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب الضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح •

ومرة أخرى نجد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محددلمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتيل ويبقوا على روحه • فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله • وعليه أن يلف ثوبه حول جسمه وجعله ملتصقا برقبته ، ولا ينبغى له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا • ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهما ملتصقين الى جانبه • كما لا يجوز له أن يمشط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء • ولا يسمح لأحد أن يأكل معه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه • فاذا خرجت قبيلته للصيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئلا يثير شبح الميت ريحا تحدث اضرارا وتعطل الصيد » • وربما قدم لنا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجماعة التى تقوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائية من تعليمات محددة • فابعاد هؤلاء الناس عن المجتمع ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظية التى تتلخص

ببساطة فى الخوف من الشبح الخطير الذى يعتقد فى أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده •

ومن عادة « اليابيم » الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى من « نيو غينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جباه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر • والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيل الذى قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا فى الأخذ بثأرهم » • فأقرباء القتيل هم الذين يعملون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعى أن يحيل شبح القاتل غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم • ولكنه فى اللحظة التى ينقض عليهم فيها ليخلع أسنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأى عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون • فهذه العلامة اذن هى بمثابة الايصال الذى يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهى دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا • وبهذا القدر اليسير من العزاء يجب على الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته أية مضايقات فى المستقبل • وربما رسمت العلامةنفسها بوضوح على جبهة القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا أو دفع ما يساوى هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته • ومن ثم فان الشبح لا يطالبه بشىء بعد ذلك • فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع دية الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال على أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكنه لايزال هناك احتمال آخر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار • من الواضح ــ بناء على النظرية التى أشرت اليها من قبل ــ أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ،حيث ان التعويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الااذا كانوا من قبيلته أو عشيرته • على أن خوف الناس

من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهم من شبح القتيل الصديق • وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق دفع الدية لأقربائه ! • لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسائل لحماية المحاربين من أشباح الرجال الذين عجلوا بهم الى الموت • ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيطة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعرف عليه الشبح • ووسيلة أخرى هى أن يحيل شكله الى صورة مفزعة أو كريهة تنفر الشبح فلا تجعله يتحرش به • وربما فسرت هذه الوسيلة أو تلك العادات الآتية التى اخترتها من بين عدد هائل من الأحوال المشابهه لما أشرت اليه •

فقبلة « با ــ ياكا » ، وهى احدى قبائل « البانتو » التى تسكن فى « ولاية الكنغو الحرة » ، » تعتقد أن الرجل الذى قتل فى احدى المعارك ، يرسل روحه لكى تأخذ بثأره من الرجل الذى قتله • غير أن القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمر من ريش ذيل الببغاء ، وأن يصبغ جبهته باللون الأحمر » • ويعتقد « الثنجاويون » الذين يسكنون جنوب شرق افريقيا ، أن الرجل الذى قتل عدو له فى معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذى يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون • ولكى يقى القاتل نفسه شر شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش فى عزلة فى عاصمة بلاده عدة أيام لا يذهب فى أثنائها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل ملاعق وأطباقا خاصة به • وقد كانت من عادة « الثونجاويين » فى الازمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضع دواء فى مكان حفر الوشم ، فتبرز أثر ذلك نتوءات تجعله يبدو كالجاموسة العابسة • « واذا قتل المحاربون « الباسوتو » [1] أعداء لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين • فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم

---

(١) قبيلة من اكبر قبائل « البانتو » فى جنوب افريقيا .
(المترجمة)

ثورا ضحية فى حضرة الجيش كله • كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم بمرارة النور ، الأمر الذى يمنع شبح العدو من تعقبهم بعـــد ذلك » •

ومن عادة قبائل « البانتو » التى تســـكن فى اقليم « كافيراندو » الذى يقع فى أفريقيا الشرقية البريطانية » ، أن الرجل اذا قتل عدوا له فى معركة ، فانه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكى يمنعوا روح الميت من مضايقته • أما عند قبائل « نيلوتيك » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر فى احدى المعارك ، حيث يقيم فى كوخ حوالى أربعة أيام • وهناك تطهو له امرأة عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس بيده أى نوع من الطعام • وفى اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضـــاء ويطهوها ويطعمه لحمها • أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه وحول رأسه • ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبيت فيه تلك الليلة• وفى اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه ويقـــدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها له واطعامه لحمها • وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته • وقد يحـــدث فى بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجـــلا بسهامه فى احـــدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثرا بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب أقرباء المصاب بعـــد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ وفاة المصـــاب ، وعندئذ يعزل المحارب فى الحال عن مجتمعه حتى يتم اجراء الطقوس السالف ذكرها • ويقول الناس : ان هـــذه الطقوس من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذى يظـــل ملازما له ، ولا يفارقه الا بعـــد تأدية هـــذه الطقوس • فاذا رفض المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الاذعان لطلب الشبح ، أمسك الشبح برقبته وخنقه •

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التى تسكن اقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدى طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتيل ، فان هو لم يفعل هـذا ، ظل شبح القتيل يطارده •

وهذا التشابه التام بين الطقوس فى هاتين الحالتين ، بالاضـافة الى دوافعها التى عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقى الضوء على الهدف من طقوس التطهير التى يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب ، ويتلخص هذا الهـدف ببسـاطة فى تخليص القاتل من شبح قتيله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى • وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسـه ، هو اخفاء القاتل عن الشـبح • وعلى الرغم من أن النصـوص التى نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتيل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنـا ، أن الغرض من طقـوس التطهـير التى يؤديها المحاربون ، أو تؤدى لهم ، هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو ابعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها • فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطىء مجرى مائى ، ويطلى المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم فى المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص • أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عونا لاخوانهم فى الاجهاز على أعدائهم فيطلون أذرعهم اليسرى فقط بالجص • وفى هذه الليلة ينام المقاتلون فى حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرءون على الاقتراب من بيوتهم • وفى الصـباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص • ثم يحضر الطبيب الساحر ويقـدم لهـم جرعة من الدواء السحرى ، ويطلى أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص • وتتـكرر هذه العملية ستة أيام على التوالى حتى يتم تطهيرهم • وعند ذاك تحلق رءوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل دنس • ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عنـدما

يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساى » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين فى معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « ناندى » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبى جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتيل ، لا يسمح له فى أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشيد لنفسه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجته أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفى مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » ولبن الماعز الممزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التى تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له فى معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطى ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود « البيماويين » اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما فى العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حى • كما كان يقيم وحده فى غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطى رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه •

وقد حـدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيهين » جماعة مستضعفة من الاسكيمو عند نهر « كوبر » ، وعند ذاك عـدت نفسها مصـابة بالدنس ، وكان على أفرادها بنـاء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ، فهؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفسـهم أو لغـيرهم الطعام • وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخنوا الا من وعاء أو غليـون يمتلكونه • وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيىء أو المشـوى على النار أو المجفف فى الشمس • وكان عليهم فى كل وجبـة قبـل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم باللون الأحمر الوردى فيما بين الأنف والذقن ، وبين الأذنين عبر الخـدين •

وكان من عادة « الهنـود التشينوكيين » الذين كانوا يسـكنون « أوريجون » و « واشـنطون » أن يسـود القـاتل وجهه بالفحم المعجون فى الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصـميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهـه ليزيل الطلاء الأسود ويطليه مرة أخرى بطلاء أحمر • وفى أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق فى النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لا يسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون • وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التى كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد •

ويعد قتل الهندى وقتل الحوت عملا رائعا عنـد الاسكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ، فمن يقتل منهم أحـد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين • وكلا البطلين يمسك عن عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لمـدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيـوان وأمعائه • وعنـدما تعود جماعة من قبيلة «أرونتا » التى تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية

يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتيل ، لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم فى هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا • ولهذا فانهم يسكتون بضعة أيام بعد عودتهم عن الحديث عن فعلتهم ، ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم بفروع الشجر الخضراء • وفى نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم بألوان براقة ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا فى حرية عن فعلتهم • ومع ذلك فهم يستيقظون فى هدوء الليل ويصغون الى شكوى الطائر الذى يتوهمونه صوت ضحيتهم •

واذا قتل المحارب عند « الفيجيين » عدوا له فى المعركة ، تخلع عليه صفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ، بالكركم من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثم يبنى له كوخ ليقضى فيه الليالى الثلاث التالية لذلك • ولا يسمح له فى هذه الليالى أن ينام مستلقيا بل ينام جالسا • كما لا يسمح له أن يغير رداءه أو يزيل الكركم عن جسمه ؛ أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنقضى الليالى الثلاث •

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هذه النظم التى تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصد بها حماية المحارب الفيجيانى من شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك • فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا فى هدوء الليل ؛ مستخدمين فى ذلك مزامير القصب والطبول المصنوعة من الأصداف البحرية ، الى غير ذلك من الوسائل التى تحدث صخبا ، وذلك بقصد افزاع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه القديم • كما أنهم يجردون هذا المسكن من معالمه ويغطونه بكل ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتذب شبح صاحبه اليه • وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا فى القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان الأكواخ وأسطحها لكى يطردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبوه حتى

الموت • ولا تزال مثل هذه العادة تتبع فى بقاع كثيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » •

وبناء على ذلك فربما كان القصد من تعليم قابيل بعلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب • أو ربما كان الغرض منها اظهاره فى صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعرف عليه شبح القاتل ، أو على الأقل يتجنبه • وقد سبق أن افترضت فى مكان آخر ، أن عادات الحداد فى العموم ، كانت فى الأصل وسيلة للتنكر تصطنع بقصد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصل عنه حديثا بموته • وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون فى بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شبح الميت اياهم • ففى الأحياء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع فى « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضع زوجهن فى اللحد ، وتبكينه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن فى القرية « وقد أسدل الجميع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ؛ أى شبحه » • وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « أفريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول لهم : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هذا المكان ؟ » • وعند ذاك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف أصبع الابهام من بين أصابعه • وعند ذاك يعرف هذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أوكوتوايريرا) ، بعد موته ؛ أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هذا الرجل يمكنه ؛ فى كثير من الأحيان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أو نجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » ؛ لكى يخلع عنه ملابسه ويغسل له جسمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذاك يهدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد

شيخنا يعرفنى » (نامبانو تاتى كى نديى اى) ومن ثم فليس هنـــاك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هـــذا أن قابيل قد هـــدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بهـــا على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضـــوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هـــذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضـــاء أو سوداء ، وربما مزج بين هـــذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال ؛ وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصـــف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساى » و « النانديون » • واذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رســـم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « الواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كما يفعل « الهنـــود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعـــل « البيمايون » • أو أنه غطى جسمه كله بروث البقر كما يفعل « الكافريندون » • أو ربما وشـــمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحـــداد الأول (كلمة قابيل «قايين » Cain معنـــاها الحـــداد Smith) أن يتجـــول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزينا بهـــذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خـــوف من أن يتعرف عليه شبح أخيـــه ويتعقبه •

ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ؛ فان تفسير العلامة بأن الرب علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر ؛ فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن على وجه الأرض من يقتله ، حيث ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح القتيل وليس انسانا حيا ؛ فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم بكل شىء • ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب •